رأي

شهادة معلم

من الأرض اليباب إلى الأرض الخصيبة

مشهور البطران

عايشت خلال تجربتي المتواضعة كمعلم في المدارس الحكومية ثلاث مطبوعات تتعامل مع الشأن التربوي.
في حقبة الاحتلال صدرت مجلة «سيرة التربية»، كان يتصدر افتتاحيتها ضابط التربية– في حينه محفوظ زاهر– في كلمة يعدد فيها مناقب الاحتلال في تطوير الحياة التربوية في الضفة الغربية وقطاع غزة، كانت مجلة أقل ما يقال عنها إنها مكرسة بالكامل لاستلاب العقل وتغييبه كمعادل يوازي استلاب المكان. لم يكن أحد يقرأها، كانت توضع على الرفوف لغرض التوثيق فحسب. أحياناً كنت أتصفحها بدافع من الفضول، أو لتسقط أخبار المدارس «المشاغبة» في الوطن والمغلقة بأوامر عسكرية، أو لمعرفة آخر أخبار المعلمين المفصولين من وظائفهم لأسباب أمنية وأنا كنت واحداً منهم.

بعد أن آلت شؤون التربية للفلسطينيين في مرحلة ما بعد أوسلو، صدرت صحيفة «مسيرة التربية»، فرحنا بصدورها وعلقنا عليها آمالاً كبيرة في تنوير الجانب الفكري والثقافي في الحياة التربوية، إلا أنها –وللأسف – بقيت تهتم بالحدث التربوي لا بالفكر التربوي، دون أن تلامس أو تقترب من الجانب الإبداعي في العملية التربوية، وربما هذا يفسر عدم قدرتها على البقاء واختفائها السريع.
وأذكر أنني ناقشت أحد القائمين على هذه الصحيفة حول ضرورة تطوير الصحيفة باستكتاب الأقلام الجيدة من أصحاب الفكر النير، وأبديت له استعداداً للمساعدة في هذا الموضوع، ولكن كل محاولاتي ضاعت في دهاليز بيروقراطية المؤسسة التربوية.

***

قصتي مع «رؤى تربوية» بدأت من العدد الحادي عشر، أحضرها لي صديق يعمل في رام الله، قال لي:
«اقرأها جيداً، ستسرك».

غالباً ما أثق بنصائح الآخرين بضرورة قراءة كتاب أو مجلة ما. أول مجلة بلا غلاف أشاهدها في هذا الوطن. الغلاف مسألة شكلانية، ليس لها علاقة بالمضمون، الأغلفة المبهرجة والمزركشة تذكرني بعارضات الأزياء، إنها بمثابة دعوة ملحة للدخول.
ألقيت نظرة على الاسم: «رؤى تربوية».
هنا الأمر يحسم تقريباً، لا داعي للغلاف المبهرج طالما أن الأمر يتعلق بالرؤى/رؤية/آراء.
الرؤى مصطلح ذو دلالة ينفتح على مساحة للاختلاف، يوحي أن ليس ثمة ما هو قطعي ونهائي في الفكر التربوي الإنساني، إذن الباب مفتوح للرؤى، للرأي والرأي الآخر لتثاقف ديمقراطي بعيد عن لغة الإقصاء.
خاطبت نفسي: «ربما أنا إزاء مجلة تخاطب العقل».
ألقيت نظرة سريعة، الصفحة الأولى: «مفتتح، هل بات حصان طروادة خلف أسوار المدينة؟». وسيم الكردي يتساءل ويسائل واقعنا التربوي عن: مفهوم الصغير والكبير، المعلم والمتعلم،

يطرح نصب أعيننا مفهوم الوصاية والتبعية في المشهد التربوي، يدعونا إلى التفكير مجدداً في مفاهيم سائدة حتى أمست متكلسة في المنظومة التربوية. يقول الكاتب: «إن اعتقاد الكبار بأنهم يعرفون أكثر يدفعهم في الغالب إلى اتخاذ القرارات الخاصة بالصغار وبالنيابة عنهم، وبالتالي تقرير يومهم وغدهم، فالكبار هم العارفون المجربون المحنكون الحكماء، أما قراراتهم هذه فتغلف بتبريرات الحرص والمعرفة والتجربة».

الصفحة الأخيرة، إشراقات دولوزية في القراءة والكتابة والمعنى والحياة. العنوان يشحن المخيلة يستحث المرء على القراءة. العناوين تثير الفضول للمتابعة، قضايا تستدعي القراءة والتأمل حول: فلسفة التربية والإبداع والدراما في التعليم.

قرأتها جيداً واكتشفت حقيقة وفائدة أن يشتبك التربوي بالثقافي والاجتماعي في الوقت ذاته، وخرجت بانطباع أنها مجلة- فعلاً- تخاطب العقل وتلامس احتياجات المعلمين وتساهم في تنوير الساحة التربوية بعد أن ظلت هذه الساحة ولعقود طويلة أرضاً يباباً لا هدف منها إلا محو الأمية.

***

في وقت لاحق قرأت إعلانا في صحيفة محلية صادر عن مركز القطان للبحث والتطوير التربوي. يشير الإعلان إلى نية المركز عقد دورات للمعلمين في منطقة بيت لحم، كاد الإعلان يمر دون أن أهتم به لولا أن مواضيع الدورات استقطبت اهتمامي كمعلم.

المساقات المطروحة لافتة للنظر لجدتها من جهة، ولأنها غير مطروقة عبر المؤسسة التربوية الرسمية من جهة أخرى: «الدراما، استكشاف القصة وتوظيفها في سياق تعليمي، الانترنت في التعليم ... الخ».

قرّ قراري على اختيار مساق القصة القصيرة. رفعت سماعة الهاتف واتصلت بمركز القطان، ولكوني مقيماً في الخليل والدورات موجهة لمعلمين من بيت لحم، فقد ظننت أنني سأواجه بمعيقات بيروقراطية، ولكن هذا لم يحدث، وسجلت الطلب عبر الهاتف بسهولة لم أكن أتوقعها.

في المكان والزمان المحددين حضرت مع عشرات المعلمين. المعلمون الذين التحقوا بهذه المساقات جاءوا من تلقاء أنفسهم ونتيجة لإحساسهم بأن هذه المساقات تساهم في تطوير مهاراتهم التربوية، الأمر الذي انعكس ايجابياً على سير المساق من تفاعل والتزام.

ولعله من المفيد هنا أن أشير أن التذمر الذي يبديه المعلمون من الدورات التي تطرحها المؤسسة التربوية الرسمية، ينشأ في الغالب لكون هذه الدورات رتيبة ونمطية ولا تشكل إضافة نوعية في محتواها التربوي.

لم أكن أظن قبل هذا المساق أن «القصة في سياقها التعليمي» تمتلك كل هذه الإمكانات المدهشة، والأمر الأكثر إدهاشاً – بالنسبة لي– تلك الإمكانية المذهلة التي أضاءها لنا الأستاذ مالك الريماوي لتعقب النص بعد نهايته وقبل بدايته، وتصميم نشاطات إثرائية للإجابة عن أسئلة من قبيل: «لماذا حدث كل ذلك؟، هل كان جديراً بالبطل أن يفعل كذا وكذا؟ ما هي النهايات البديلة؟ تخيل نفسك في مكان البطل، هل كنت ستتصرف على هذا النحو أو ذاك؟ ... الخ. وكل هذه الأسئلة وغيرها كانت تجاوب بنشاطات غاية في الدقة والتصميم.

لم أكن أظن قبل هذا المساق أن «القصة في سياقها التعليمي» تمتلك كل هذه الإمكانات المدهشة.

إن هذه النشاطات، فيما لو طبقت في غرفة الصف، فإنها، من غير شك، ستساهم في فتح مخيال الطالب على مناطق معتمة فيها كثيراً من الخصب والنماء.

كان الجو العام للمساق تفاعلياً وتعاونياً بعيداً عن لغة التنظير الاستعراضية التي عاهدناها وما زلنا في الأكاديمية الفلسطينية، الأستاذ مالك الريماوي يفعل أكثر مما يحكي، يمسرح المواقف يوجه ويرشد من موقع المساواة، يحقننا تدريجياً بجرعات من الجسارة لكي نمثل أدواراً أو نرتجل مواقف في سياق القصة، ولما كان الارتجال والمشافهة أمرين مغيبين في الثقافة التربوية الرسمية، فقد كان الأمر صعباً على البعض، ولكن مهارة الأستاذ مالك وقدرته وتشجيعه لنا ساعدنا على تخطي هذه العقبة، في اليوم الأول كنا خائفين، في اليوم الثاني كنا مترددين، في اليوم الثالث كنا سعداء.

أنهيت هذا المساق وبي إحساس ممضٍ أنني كنت ألبس ثوباً قديماً، وأنني بحاجة ماسة لتبديله. وبهذه المناسبة أتوجه بالشكر لمركز القطان نيابة عن زملائي الذين شاركوا في هذه الدورة، وكلفوني بهذه المهمة.

مشهور البطران- كاتب ومدرس يقيم في الخليل